

ملاح من تاريخ متيجة في العصر الوسيط من خلال المصادر

أ / عبد القادر بوعقادة

قسم التاريخ، جامعة سعد دحلب 2-البليدة

- تقديم :

الحديث عن المجال المتيجي وما يحويه من مظاهر عمرانية وطبيعية واقتصادية واجتماعية يؤدي بنا إلى ضرورة البحث عن إفادات ذلك من خلال مجموعة من المصادر الأولية التي يمكن البناء على أساسها لهذا الفحص وحواضره، ومن الضروري تسجيل الملاحظة التي يصطدم بها كل باحث في هذا الشأن قصد التأسيس لهذا المجال والمتمثلة في قلة المعلومات وشح المصادر، وعلى وجه التحديد الكتابات المسلكية ومدونات الرحلة، كما تحضر ملاحظة ثانية وهي تكرار المادة المعرفية لدى هذه المصادر، إذ أنّ النقل عن بعضها صار من الثابت بمكان. ومع ذلك تبقى المادة المتوفرة في هذه المدونات تعبر عن القيمة التاريخية والدور الذي لعبته حاضرة الجزائر وفحصها الواسع "متيجة" عبر العصور.

ومن منطلق التأسيس التاريخي للمنطقة وإبراز مظاهر تطورها والإمكانات التي كانت دوما مصدر قيمتها وأهميتها ارتأينا أن نقضي آثار هذا المجال الفسيح في العصر الوسيط الذي كان يزدهم بالأحداث التي كان لها مفعولها على مدن متيجة وقراها، وتعدى ذلك إلى باقي المناطق المجاورة مع اختلاف الموقع بحسب البعد والقرب من الفحص.

لقد أبانت المصادر عن ملامح مهمة لهذا المجال الفسيح الحيوي وقدمت معلومات - رغم قلتها - تعدّ مهمة إذا ما تمّ التعمق في قراءتها ومقارنتها

والاستنتاج على ضوءها ، فالإلى أي مدى وصلت كتب المسالك والرحلات والمصادر المتنوعة من توضيح إمكانات الفحص وأهميته وقيّمته على جميع المستويات؟ إنّ المؤرخ والقارئ الحصيف سينتهي أثناء تفحصه لهذه المصادر إلى جملة من الحقائق تثير الكثير من الزوايا الغامضة في تاريخ الفحص وتعطي رؤية واضحة عن تلك الإمكانيات التي كانت دوما مصدر قوة الفحص وقيّمته التي إن تمّ توظيفها بفاعلية مجددا ترتب عليها تجاوز العديد من العقبات والوصول إلى تحقيق الكثير من الأهداف.

I - متيجة "المصطلح والمجال" :

نجد هذا المصطلح "متيجة" متداولاً منذ المراحل الأولى للكتابة التاريخية التي اهتم بها العرب ، فاليعقوبي صاحب البلدان (ت 292هـ) تحدث عن هذا الفحص وعن القائمين عليه حينما قال بأنّه فحص واسع فيه عدة مدن وحصون¹ ، وبذلك فهو يلفت النظر إلى ملاحظة مهمّة هي قدّم المصطلح ثمّ إشارته إلى احتواء الفحص على مدن متعددة ، وتكرر هذا المعنى عند صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وهو من أعلام (ق 6هـ) والذي أشار بدوره إلى متيجة وذكر خصوبة أرضها وأنّ القرى والعمائر بهذا الفحص كثيرة² . وقدّم ابن خلدون نفس الملاحظة والتوصيف الذي أورده السابقون حينما ذكر بأنّ الإخباريين أشاروا إلى أنّ أهل متيجة في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين كانوا يجمعون في ثلاثين مصر ، ثم جاس خلالها أولاد مندبل وهم من قبيل مغرواة بعد ذهاب ملك مغرواة بتلمسان وسجلماسة وفاس وطرابلس³ . وإنّ ابن خلدون حينما يتحدث عن مصر (30 مصر) فإنّ ذلك يعني وجود ثلاثين حاضرة "مدينة" لأنّ مصر يقتضي أن يكون له كيان سياسي وموجه ديني (جامع ، قاض مفتي) وصلاة جامعة ، إذ لا تجوز الجمع إلّا في الأمصار على ما ذكر و قرر الفقهاء الأحناف ، وسار على نفس الاتجاه الحميري بقوله "بأنّه فحص عظيم كثير الخصب والقرى والعمائر"⁴ .

والملاحظة الثانية تكمن في العلاقة بين الجزائر الحاضرة وفحص متيجة وهل الجزائر داخله ضمن الفحص أم لا⁵. يورد ابن حوقل وهو من أعلام (ق 4هـ) بأن فحص متيجة بادية كبيرة واسعة تنتمي لحاضر جزائر بني مزغناي⁵، لكن معاصره المقدسي (ت 390هـ) يذكر على أن فحص متيجة مستقل عن جزائر بني مزغناي، فهو حينما يعدد مناطق المغرب الإسلامي يذكر جزيرة أبي الشريك وسوق ابن يخلف ودوفانة وأشير وسوق حمزة وجزيرة بني مزغناي ومتيجة وتبس وسوق إبراهيم وغيرها من المناطق⁶، وبذلك يعطي الانطباع باستقلال كل مجال عن الآخر.

كما وجب الإشارة أيضا في هذا السياق إلى ذلك الخلاف الذي يظهر حول اسم متيجة حتى لدى ابن خلدون، من حيث إطلاقه على السهل الفسيح الذي يضم مجموعة من المدائن والعمائر والقرى على ما ذكر آنفا اليعقوبي وابن حوقل والحميري، في حين ينقل إلينا ابن خلدون في موضع آخر ليذكر بأن متيجة هي أقزرنه على ما ذكر البكري (ق 5هـ) حيث أشار هذا الأخير إلى الطريق من أشير إلى بني مزغناي، ومن أشير إلى المدينة هذه الأخير التي قال عنها بأنها بلد جليل قديم ومنها إلى أقزرنه وهي مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين ويقال أنها متيجة⁷. كما أشار المتأخرون بأن كلمة متيجة دالة على اسم سهل نسب إلى اسم مدينة به يقال بأنها قزرونة والمسماة متيجة⁸. في حين كان الوزان قد تحدث بنوع من التدقيق على أن الكلمة "متيجة" دالة على الضواحي من الجزائر، وهي سهولة جميلة جدا يبلغ طولها 45 ميلاً وعرضها 36 ميلاً⁹.

وبغض النظر عن التسمية إن كانت تدل على المدينة وتمّ تعميمه على السهل ككل أم أنها اسم سهل اختصت به مدينة أقزرنه⁹، فإنّ المختصين أشاروا أيضا إلى ملاحظة أخرى تخص الفحص من حيث وضعه الطبيعي التضاريسي حينما يحيلون على المقدسي على أن متيجة تقع في مرج به ماء جار عليه أرحية وهي إقليم واسع¹⁰. و نبهت الدراسات المتأخرة عند الحديث عن

متيجة بأنه وجب التحري عند مشاهدة مناظر هذا الإقليم اليوم وألا يُظن بأن حالته تلك كانت منذ القدم، بل إن سهل متيجة كان جزءاً منه فيما لا يزيد كثيراً عن قرن مغموراً بالمستقعات¹، مما يعني بأن وضعه الطبيعي المنخفض قد سمح بانتشار المستقعات ولا تزال هذه الصفة رغم انكماش الظاهرة - تتداولها الشفاه خصوصاً وأن بعضاً منه قد سمي بذلك - نقصد تلك المساحة الموسومة بـ "تسالة المرجة" مثلاً - .

2- الواقع الطبيعي للفحص وبعده الاقتصادي والسياسي :

اقتربت أهمية المجال بما احتواه من خيارات وإمكانات دفعت إلى تألقه عن باقي مناطق المغرب الأوسط. فكل المصادر التي عرّفت متيجة تذكر خصبة ترتبتها وكثرة مياهها وتنوع السلع بها، وأن الأنهار تشقها، حتى أن المقدسي (ت390هـ) أشار إلى أن الماء الجاري بها يدخل الدور وفق ما سبق ذكره²، وهو ما يعني أن البيوتات المنتشرة عبر مدنه قد كانت مزودة بمجاري وسواقي مما يدل كذلك على تطور شبكة المياه الصالحة للشرب أو السقي، وأن تجربة جلب الماء إلى الدور كانت قبل (ق4هـ)، وأن أهل متيجة كانوا على دراية بقوانين جلب الماء قبل أن يحطّ رحاله بها شيخ الأندلس ومهندسها "سيدي أحمد الكبير".

لقد شكلت المجاري المائية بمجال متيجة الشريان الحيوي لواقعه الاقتصادي والطبيعي والاجتماعي وقد بقيت المجاري محافظة على نشاطها ومساهمتها في حيوية السهل الفسيح عبر الزمن في وسطه وغربه وشرقه، فهذا السهل الممتد من الثنية وبودواو ويسر شرقاً إلى باب الغرب وجبال الناظور وشنة غرباً، ومن ريو القليعة والبحر شمالاً إلى الأطلس البليدي "الشرية وتمزكية" جنوباً قد وصفته المصادر بكثرة خصوبته وانتشار العماثر به والأنهار، والذي يبلغ نحو مرحلتين ومثلها، وذكرت بأنه كان دوماً محمياً بفعل تلك المرتفعات التي أحدثت به وصارت إكليلاً على رأسه³. وربما جاء اسم متيجة مقترناً

بذلك السهل المكمل بالجبال، فكانت هذه الجبال تاجا على رأس السهل وصار السهل "مُتَوَجًّا" مُتَيَّجًا".

هذه الجبال التي كالإكليل تتبع منها أنهار جارية حافظت عبر الزمن على قوة السهل وعبرت عن قيمته الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية، فصاحب الاستبصار (ق 6هـ) أشار إلى أن آخر هذا الفحص من جهة الغرب يحده جبل عليه طريق وعر المجاز يسمى حلق واجر، ويسميه أهل البلاد باب الغرب إذ ليس يدخل إلى بلاد الغرب إلاّ منه¹⁴. وهو عبارة عن منخفض بين جبال يجري فيها واد جر الذي يفصل بين متيجة ومليانة مثلما ذكر ابن خلدون¹⁵.

كما أشار الوزان في وصفه لإفريقية وهو الذي ولد سنة 888هـ/1483م واختفى في ظروف غامضة سنة 957هـ/1550م، إلى ذلك النهر الذي يسيل في عمق متيجة وهو واد شفة، حيث ذكر بأنه نهر ليس بالطويل ينبع من الأطلس ويسيل في سهل يدعى متيجة مجاور لمدينة الجزائر، ثم يصب في البحر المتوسط¹⁶.

كما حدّده أحمد توفيق المدني بأنه واد ينزل من جبال موزايا ويخترق مضيقا من أبدع ما تراه العين، ويتصل بوادي سيدي الكبير، ثم يصب في وادي جر قرب القليعة فيتكون من ذلك وغيره وادي مزفران الذي يصب في البحر المتوسط شرق القليعة وغرب مدينة الجزائر¹⁷. ونظن أن ذكر البكري لمتيجة بأنها مدينة على نهر كبير عليه الأرجاء والبساتين يقال لها متيجة لها مزارع ومسارح وأن بها عيونا سائحة وطواحين¹⁸ وقد وافقه في ذلك الحموي حينما ذكر بأن متيجة بلد في آخر أفريقية من أعمال بني حماد من المدية إلى قزرونة على أنها مدينة على نهر كبير عليه أرحاء وبساتين يقال لها متيجة¹⁹، بأن المقصود بالنهر الكبير والوادي الجاري الذي يشق السهل في وسطه هو وادي شفة الذي يلتقي مع واديين آخرين وادي سيدي الكبير ووادي جر، وقد وضع ذلك مارمول كربخال وسماء وادي سلف وقال عنه بأنه نهر ضخّم يخرج من الأطلس الكبير فيحاذي سهول متيجة من أحد جوانبها ثم يسير ليصب في البحر

المتوسط على بعد خمسة فراسخ من الجزائر العاصمة إلى جهة الغرب²⁰، ويتشكل بذلك وادي مازفران الذي سماه بطليموس قنلاف،

أما في شرق متيجة فإنّ كريخال يذكر ثلاثة أنهار تتبع من الأطلس الكبير لتصب في البحر المتوسط وهي وادي سيفاية حيث يصب قريبا من أنقاض ميتافوس التي كان الأفارقة يسمونها تمندفوست، وبين هذه المدينة ومدينة الجزائر يصب نهران آخران ينحدران من نفس الأعلى (الجبال) فيفيضان شتاء ويقلآن صيفا ويقصد بهما وادي الحميز و وادي الحراش²¹. هكذا شكلت هذه الشبكة من الأودية في شرق متيجة وغربها ووسطها قوة السهل وساكنته، إذ سالت الأودية المليئة بالمياه على طول السنة من جبال الأطلس لتعبر هذا الفحص رامية الطمي لتخصب تربته.

بالإضافة إلى هذه الميزة شكلت الجبال رافدا مهما في إعطاء خاصيتي الحماية والنشاط لهذا السهل الخصيب سواء من حيث اعتبارها مصدرا للمياه أو من حيث أنها مانعة للأخطار المحدقة بساكنه السهل، فوجود الجبال ذات المسالك الوعرة من جهة جنوب السهل من شرقه إلى غربه عمل على حماية الفحص عبر الزمن، وإنّ الأخطار التي قد تؤثر على ساكنه السهل لا يمكن عبورها إلى داخل الفحص إلاّ عبر خوانق ثلاث أحدها في الشرق وآخر في الوسط وثالثها في الغرب في دروب وعرة شكلتها الوديان الرئيسية لهذا الفحص وأحيطت الجبال به جنوبا كالإكليل²². وقد ظهرت نجاعة هذه الجبال وخوانقها عبر فترات التاريخ حينما حسمت في كثير من الأحداث والمسارات التاريخية للفحص، فابن خلدون في إشارته إلى النزاع بين بني غانية أصحاب الجزر الأندلسية "بقايا المرابطين" الذين وفدوا على المغرب الأوسط والموحدين وزعيم جيشهم عصرئذ أبو زكرياء جدّ الخلفاء الحفصيين تحدث عن كيفية تتبع الحفصيين الموحدين لبني غانية وقتالهم عند حلق واد جر كما أوقع كذلك بمغراوة في نفس هذا الحلق الرابط بين مليانة ومتيجة، إذ العابر منه يكون على

مرمى سهم حارسه وأهل بلده²³. كما نبّه الوزان 888-957هـ إلى نفس الملاحظة وهي دور الجبال في حماية السهل وقراه حينما تحدث عن جبال دولة الجزائر حيث يقول "يوجد في شرق سهل الجزائر وجنوبه عدد لا يحصى من الجبال، وأن ساكنته قبائل شديدة البأس متحررة من كل إتاوة"²⁴.

عُدّت من عناصر قوة هذا الفحص - بالإضافة إلى موقعه الآمن وسهوله الواسعة وشبكة مياحه الهائلة التي قال عنها البكري بأنّ بالفحص عيون سائحة وطواحين ماء وأرحاء على النهر الكبير وبساتين²⁵ - إطلاله على مدن عريقة ذات شأن تاريخي وسياسي واقتصادي، إذ تشكل هذه المدن (وهي المدينة الجزائر ومليانة) محطات تجارية كبرى على مسالك التجارة عصرئذ يتمّ فيها التبادل. وإذا كانت مدينة الجزائر قد مثلت عين الفحص على البحر في الشمال، فإنّ حاضرة المدينة قد كانت معبره نحو بادية الجنوب كمل شكلت مليانة معبره الآخر نحو الغرب والبحر.

لقد كانت حاضرة الجزائر عروس الفحص وهي مدينة قديمة إفريقية سماها مارمول كرخيال سيفاري وهو اسمها القديم وتسمى في العصر الوسيط بجزائر بني مزغناي²⁶، قال عنها الوزان بأنّها كانت تحوي أربعة آلاف كانون من بناء قبيلة إفريقية تسمى مزغنة، وذكر بها أسواقا ومبانيا جميلة ومنسقة وأنّ لكل حرفة بها مكانها المقصود، كما توجد بها فنادق وحمامات وبها جامع جميل كبير على ساحل البحر تتوفر أمامه ساحة جميلة يتلاطم عنده أمواج البحر وقد سماها الإسبان ألجي²⁷. كما تحدث عن أهمية هذه الحاضرة ابن حوقل (ق4هـ) سابقا فذكر أسواقها وباديتها الكبرى "متيجة" وجبالها وأهمّ السلع بها مما جعلها تلفت أنظار التجار وبالأخص القيروانيين، وأضاف إلى هذه الأهمية من ناحية الشمال والبحر بالنسبة لمتيجة مدينتي شرشال وبرشك²⁸ المدينتان القديمتان ذواتا الشأن في عهده واللذان تعاملتا مع أهل متيجة²⁹.

أما المدينة الثانية من ناحية الغرب فتحضر مليانة التي بناها الرومان وأطلقوا عليها اسم ماكنانة، فهي تقع في سفح الجبل وتطل على سهل واسع في أسفله، وهي لا تبعد كثيرا عن البحر - "حيث مدينة شرشال" - تحوي أسواقا ودورا متقنة وبها ساكنه اهتمت بالنسيج وصناعة الأواني الخشبية وهم يشتغلون أيضا في الفلاحة والخرابة وقد أعاد الصنهاجيون تعميرها وتمصيرها والاهتمام بها في القرن 4هـ/10م³⁰.

أما المدينة الثالثة فهي المدية التي بناها أيضا الأفارقة في تخوم نويميديا، وقيل سماها الرومان "لاميديا" نسبة لقبيلة لمدية الصنهاجية، وكانت قد خربت ثم تم تجديد بنائها زمن الصنهاجيين أيضا³¹.

فبفضل مجاورة سهل متيجة لهذه المدن العريقة سهلت عملية التبادل التجاري وأثمر الاحتكاك بين ساكنة الفحص وحضر هذه المدن، وتم التعامل الاقتصادي ونشط خصوصا وأن متيجة كانت دوما غنية بمنتجات الكتان وغيره من الحبوب والخضروات مما ساهم في حيوية الفحص وأهميته الاقتصادية فالتاريخية³².

3- ديموغرافية الفحص في العصر الوسيط :

وجب الوقوف في هذه الدراسة عند الملمح الديموغرافي الذي كان يتميز به سهل متيجة من حيث فصائل ساكنته المتنوعة بين بربر أصلاء وعرب فاتحين وأعراب رحل، ومن حيث نوعية الساكنة التي قفزت بمدائن الفحص نحو واقع آخر غير معهود وأعطته القيمة بوفود الشرفاء عليه وتخرج العلماء والطلبة الأذكياء من مدارس ودور علمه.

أ - ساكنة متيجة من قبائل البربر :

من المعلوم أن أحسن من فصل في المنظومة القبلية لبلاد المغرب كان ابن خلدون الذي تحدث عن ساكنة بلاد المغرب عموما من البربر والداخلين إليه من العرب، وأشار إلى أن البربر شعبان برانس من نسل مازيغ بن كنعان وهم سبعة

أجذم أزداجه ومصموده وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجية وأوريفة. وقد قيل أن صنهاجة وكتامة ليستا من قبائل البربر بل شعوب يمنية تركها إفريقيش حينما نزل بها. أما البتر فهم بنو مادغيس الأبتري تجمعهم أربعة أجدام هي أداسة نفوسة ضريسة وبنولوا الأكبر وكلهم بنو زحيك بن مادغيس³³.

وإذا ما أمكن إعطاء تقسيم قبلي لبلاد المغرب الأوسط عموما والتركيز على ثلاث قبائل كبرى كانت تحكم هذه المنطقة وهي كتامة شرقا وزناتة غربا وصنهاجة بينهما، فإنّ ذلك سيتساير مع ما ذكره ابن خلدون حينما قال: بأنّ أغلب ديار زناتة كان لمغراوة وبني يفرن وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومطفرة ومطماطة، ثم صار بعدهم لبني وماتو وبني يلومي ثم صارت لبني عبد الوادي وتوجين، وذكر قاعدته لهذا العهد هي تلمسان دار ملكه، ويجاوره من ناحية المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمدية وما يليها إلى بجاية وقبائلهم كلهم صاروا مغلوبين للعرب من زغبة³⁴.

كما أشارت الدراسات إلى أنّ صنهاجة أكثر أهل المغرب لهذا العهد، فلا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في الجبل أو البسيط كانوا فيما بين زواوة وزناتة، وقد انحدرت منهم أمة إلى الجنوب بالصحراء، وعمرّوا بين غدامس شرقا والسودان الغربي وهم الذين عرفوا بالملثمين³⁵.

ومع هذا الانتشار لبربر صنهاجة بمتيجة فإنّ التدافع أدى من حين لآخر إلى استيلاء القبائل الزناتية على هذا الفحص، فقد ذكر ابن خلدون خضوع المنطقة لأولاد منديل وهم من الخززية (بني خزر) المنسوبون إلى قبيلة مغراوة الزناتية الذين انقرض ملكهم بالمغرب فدخلوا ضواحي شلف ووانشريس كما دخلوا متيجة تأييدا للموحدين، وكان زعيم المغراويين رجل عُرف بعبادته وعلمه يسمى عبد الرحمن الذي كان جليل القدر محترم المكانة من قبل الموحيدين الحفصيين فتعاونوا معه ضد يحيى بن غانية في حدود 618هـ، وكان عبد الرحمن هذا قد خلف من الأبناء منديل وتميم وكان أكبرهما منديل الذي جاس في

متيجة حينما كان بها "30 مصرًا" فخرّب عمرانها وتركها خاوية على عروشها، ولكن عند التحامه بابن غانية قتل منديل وتغلب يحيى بن غانية على الجزائر³⁶. كما أنّ دخول الزيانين - بني عبد الوادي- على عهد أبي حمو 665-718هـ والذي كانت مبايعته سنة 707هـ إلى وادي الشلف ثم إخضاعه متيجة سنة 712هـ وسيطرته على قبيل مليكش (ملكيش) يدخل ضمن هذه السيطرة الزناتية على بلاد متيجة³⁷. وعليه نلاحظ بأنّه على الرغم من انتساب فحص متيجة إلى الإقليم القبلي الصنهاجي بالأصالة، فإنّه لا يعني ذلك عدم وجود قبائل زناتية الأصل التي استقرت به، وهذا ما يظهر الأهمية الكبرى لهذا الإقليم الذي شهد تطاحن بطون القبيلتين عبر الزمن الوسيط.

ب- ساكنة متيجة من قبائل العرب :

بغض النظر عن حركة الفتح التي طالت بلاد المغرب قادمة من المشرق وعبروها هذا السهل والذي لا نجد له مصادر متقدمة يمكن بفضلها إماطة اللثام عن الواقع الاجتماعي لهذا الفحص قبل ق4هـ، فإنّ الرقيق القيرواني يذكر عبور ثلاثة شعوب من العرب إلى إفريقية بأسرها بإذن من الخليفة الشيعي على إثر النزاع بين الفاطميين وخلفائهم الزيريين الذين اتخذوا فيما بعد مذهبية مخالفة لأمراء الفاطميين وأعلنوا التأييد للعباسيين السنّة، حيث لخص اليازوري وزير الأمير الفاطمي هذا العبور بكتاب بعثه سنة 441هـ إلى المعز الصنهاجي يقول : "قد أنفذنا إليكم جنودا فحولوا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا" وكانت القبائل الثلاث بنو هلال وبنو سليم وهم من صحراء الجزيرة ومعدل من اليمن، وكانوا جميعا يكونون خمسين ألف محارب انتشروا في كل مكان بشرق بلاد البربر، ثم صاروا يملكون عدة أقاليم من أفريقيا³⁸.

وكان ممن وصل إلى متيجة عرب المعدل أحلاف بني هلال، ومعدل نسبه إلى جدهم معدل والذي وُلد له من الأبناء سحير ومحمد، فأنجب سحير "صغير" عبيد الله وتغلب، فكان من عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم، ومن

ثعلب الثعالبة الذين كانوا ببسيط متيجة ونواحي الجزائر³⁹. ويضيف ابن خلدون توضيحاً لذلك بقوله: "الثعالبة من ولد ثعلب بن علي بن بكر بن صغير أخ عبيد الله بن صغير (سحير) وموطنهم لهذا العهد (عهد ابن خلدون) من ببسيط الجزائر. وكانوا قبلها بقطيري موطن حصين لهذا العهد نزلوها منذ عصور قديمة، في وقت كان ذوي عبيد الله إخوانهم في موطن بني عامر لهذا العهد، وكان بنو عامر في موطن بني سويد، فكانت مواطنهم لذلك العهد متصلة بالتلول الشرقية، فدخلوا من ناحية كزول ثم تدرجوا في المواطن إلى ضواحي المدية، ونزلوا جبل تيطري، وهو جبل أشير الذي كانت فيه مدينة كبيرة، فلما تغلب بنو توجين على التلول وملكوا وانشريس زحف محمد بن عبد القوي إلى المدينة (المدية) فملكها، وكانت بينهم حروب فتغلب على الثعالبة الذين نزحوا بعدها إلى متيجة، وأنزل قبائل حصين بتيطري، ودخل الثعالبة هؤلاء في إيالة مليكش (أو ملكيش) من قبيلة صنهاجة ببسيط متيجة، وأوطنوا تحت ملكهم حتى إذا غلب بنو مرين على المغرب الأوسط وأذهب ملك مليكش منها، استبد الثعالبة هؤلاء بذلك البسيط وملكوه، وكانت رياستهم في ولد سباع بن ثعلب بن علي بن بكر⁴⁰.

ومن الملاحظات المهمة حول القبائل التي كانت تتخذ من متيجة منزلاً للعيش أنها كانت شبه متحررة، وهي تؤيد في كل مرة دولة من الدول، حيث لا تستقر على كيان واحد وولاء معين حسب الظروف، وأن القبائل التي كانت تنهزم كانت تتحصن عادة بتلك الجبال الممتدة جنوب السهل، وهو ما نستشفه من حركة السلطان أبي حمو بن أبي سعيد بن أبي يحيى يغمراسن بن زيان (707-718هـ) وكيف كان يخمد الثورات ويطارد خصومه، فيلجأون إلى جبال موصاية (موزاية) على ما ذكر صاحب البغية⁴¹. وهو ما وقع كذلك للثعالبة في نزاعهم مع أبي ثابت بن عبد الرحمن بن يحيى بن

يغمراسن سنة 749هـ، الزياني حينما تحصن هؤلاء "عرب متيجة" في جبل بن أبي خليل فحاصرهم إلى أن ركنوا إلى شروطه ⁴².

وقد بينت لنا العديد من الوقائع المتناثرة في نصوص المصادر كيف كانت الولاءات غير مستقرة، وكيف كانت هذه القبائل المتوافرة بمتيجة تساهم في الحراك السياسي والعسكري المتميز بالاضطراب في بلاد المغرب الأوسط خصوصا ⁴³. وربما دفعت الضرورة إلى التحام كل القبائل لنصرة أحد السلاطين وهو ما وقع بالفعل أثناء نزاع أبي حمو الزياني مع سلاطين بني مرين والدور الذي لعبته القبائل المتواجدة في الصحراء والسهول، حيث تحدث ابن خلدون عن اجتماع القبائل تحت إمرة سالم بن إبراهيم الذي عدّه كبير الثغالبه وصاحب وطن متيجة ⁴⁴، بعد أن كان سالم قد تغلب على بسيط متيجة وعلى بلد الجزائر ⁴⁵. وإن الدارس ليلحظ في عبر ابن خلدون بأن مجال المغرب الأوسط والجزائر و متيجة تحديدا كيف كان يتأرجح ولاءها حسب منطق القوة والضعف بين بني مرين أحيانا وبني زيان أحيين أخرى ⁴⁶.

كما نبّهت المصادر أيضا إلى طبيعة سكان أهل متيجة الذين كانوا بجبال شرق السهل وجنوبه، بأنها كانت قبائل ذات بأس شديد متحررة من كل إتاوة، مع وفرة الغنى لديها متميزة بسعة الكرم وفق خلال العرب المعهودة، ومع ذلك فغالبا ما كانت الحرب توقد بين هذه القبائل، وامتدت العداوة حتى صار لا يستطيع أحد من أبناء المنطقة أو خارجها أن يمر فيها بسلام ما لم يكن مصحوبا بأحد الأولياء ⁴⁷. أمّا عن معاملاتهم الاقتصادية فإن هؤلاء الجبليين كانوا يقيمون فيما بينهم معارضا وأسواقا معلومة الأيام يتداول فيها السلع من شتى الأنواع كالبهائم والحبوب والصوف، وربما بعض الأقمشة المجلوبة من المدن المجاورة ⁴⁸.

ج- الأشراف بفحص متيجة :

ذكر المليي وهو يتحدث عن صنهاجة متيجة بأنهم أهل مدر وأن من مدنها أشير والمدينة ومتيجة والجزائر، وقد أسلموا لأول الفتح، لكن بعضا منهم دان بالخارجية أيام الفتنة ثم فارقوها ⁴⁹. وأفادنا اليعقوبي (ت 292هـ) سابقا بنص مهمّ حينما أشار إلى تواجد السليمانيين الأشراف ببسيط متيجة وما حولها، هم ولد محمد بن سليمان إذ كان كل رجل من أولاده مقيما في مدينة وناحية يقول: "بلد متيجة بلد تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب يقال لهم بنو محمد بن جعفر ⁵⁰. وأكد ذلك التتسي في تاريخه بقوله: "أما بنو سليمان بن عبد الله الكامل أخو الأدارسة فتمكنوا من المغرب الأوسط حيث قدم إلى تلمسان بعد مقتل إدريس الأول، وقد تحالف محمد بن سليمان مع إدريس الثاني للسيطرة على ما وراء الشلف فكان له ذلك إلى غاية بجاية، ثم رجع إدريس الثاني إلى بلاده وترك المغرب الأوسط بيد ابن عمه محمد بن سليمان، هذا الأخير الذي فرق بنيه على أعمال المغرب الأوسط، فقام عيسى بأرشكول وابنه إدريس بجراوة (بين ملوية وتلمسان) وابنه الحسن علي تهرت، وابنه إبراهيم على تنس وما وراءها، وكان ابنه أحمد ولي عهده معه بتلمسان وكان إبراهيم من ولده حمزة وهو صاحب إقليم حمزة المنسوب إليه (البويرة حاليا) ⁵¹، ومن خلال نصوص اليعقوبي (ت 295هـ) الذي يعدّ المعاصر الأقرب للأدارسة يمكن أن نفصل في خريطة المدّ السليمانى والإدريسى العلوي ببلاد المغرب الأوسط، فبالإضافة إلى ما سبق نجد صاحب المصدر يتحدث عن البلاد التي وقعت تحت يد الأشراف الحسنين يقول: "متيجة بلد زرع وعامرة" وبين هذا البلد وبين حصن مصادف بن جرتيل مسيرة ثلاثة أيام مما يلي البحر ثم مدينة مدكرة وفيها ولد محمد بن سليمان، ومدينة الخضراء وهي بلد زرع وتغلب عليه أيضا ولد محمد بن سليمان، وآخر المدن التي بيد محمد بن سليمان هي سوق إبراهيم ⁵²، وسوق إبراهيم منهم من يذكرها على أنها تنس ولكن الغالب أنها تقع محاذية لتنس

غربا، ويضيف الوزان امتداد نفوذ الأشراف إلى تاقدمت (المدينة القديمة) التي لا تبعد كثيرا على تاهرت يقول: "لما دخلها المسلمون عادت مدينة متحضرة تضم عددا وافرا من العلماء والشعراء، إذا كان الأمير عليها أحد أعمام إدريس مؤسس مدينة فاس، واستمرت الإمارة الإدريسية فيها زهاء 150 عاما ثم تمّ تخريبها من قبل الشيعة سنة 365هـ⁵³. أما من ناحية الشرق والجنوب الشرقي لمتيجة فإنّ اليعقوبي يذكر أنّ هؤلاء الأشراف قد امتد نفوذهم إلى بلاد حمزة (البويرة) حيث وقعت تحت يد الحسن بن سليمان، وأنّ أول المناطق التابعة له بها هي بلاد هاز ووافقه في ذلك ابن حزم (ت 456هـ)، والبكري (ت 478هـ) والحموي (ت 626هـ)، وبأنّ الذي بناها هو حمزة بن الحسن بن سليمان وبه سميت⁵⁴.

وإنّه مع وجود العلوية المنتمية إلى جعفر أخو عبد الله الكامل بمتيجة وامتلاكها لهذا المجال مدة من الزمن في ق 3هـ، ثم وفدت عليهم أيام الشيعة قبائل المعقل، فإنّه لا يستبعد بقاء أبناء جعفر هنالك بعد ذهاب ملكهم حتى نزل عليهم الثعالبة⁵⁵. وهذا ما دفع بابن خلدون إلى التلميح إلى تلك العلاقة بين قبائل المعقل وانتسابهم إلى جعفر بن أبي طالب وفق ما أشار إليه الميلي سالفًا.

إنّ الحديث عن الشرفاء بالمغرب الأوسط، والانتساب إليهم وإلحاق قبائل المعقل بالأداسة أمر كان الغالب على أذهان الناس لما لقيمة البيت الشريف من مكانة اجتماعية وسياسية ودينية وهي مسألة نفسها التي حاول ابن خلدون يحي وأبو عبد الله التتسي استعمالها في شأن نسب بني عبد الوادي والتحامهم بالنسب الشريف، إذ أشار يحي بن خلدون إلى أنّ بني عبد الواد فخذان، أحدهما بنو عبد الواد وبهذا الاسم عرف الجميع تغلبا وأصله عابد الوادي وهي رهبانية عرف بها جدّهم، وهو أوّل من أطاع عقبة بن نافع الذي دعا له ولبنائه. والفخذ الثاني هم بنو القاسم من ولد إدريس بن إدريس بن عبد الله إذ لما تغلب المنصور بن أبي عامر (الأمير الأندلسي) على الحسن بن قتون رحل القاسم إلى الصحراء وانضاف إلى بني عبد الوادي فأكرموه وعظموه وحكموه فيما بينهم وتزوج

منهم ونسل فيهم ذرية كثيرة⁵⁶. ويؤكد التتسي على أن القاسم هذا هو جد أمير المؤمنين مولانا المتوكل على ما صححه صاحب ترجمان العبر⁵⁷ محتجا على أن هذا هو الذي كان في هذه البلاد⁵⁸.

وما نخلص إليه في هذا الشأن أنه بالفعل خضع أغلب الصنهاجيين للإمارة العلوية، في حين أن بعضهم كان مستقلا محتما بالجبال تحت إمرة رؤساء منهم، وكان أشهرهم مناد بن منقوش الذي قيل أنه كان يقيم الدعوة العباسية ويعترف بالإمارة الأغلبية، ولكن لما خلفه ابنه زيري تعامل هذا الأخير مع العبيدين حينما نزلوا الجزائر سنة 335هـ⁵⁹. كما تبين أيضا أن بلاد المغرب الأوسط والتي من أهم مناطقها بلاد متيجة قد وقع فيها اختلاط الدماء الشريفة بالعربية الهلالية المعقلية والأمازيغية لبني عبد الوادي الذين كانوا بالصحراء وانتقلوا إلى تلمسان ثم توسعوا إلى حدود بجاية، وأن ذلك التدافع الذي كان يقع بين قبائل المغرب الأوسط بقدر ما كان تدافعا عنيفا، فإن آثاره الأخرى في اختلاط الأنساب قد تولد عليه عنصر جديد شكل مجتمع المغرب الأوسط وساكنته نتيجة وما حولها، وتحضر عدة فاعليات فكرية وسياسية في العصر الحديث ارتسمت فيها هذه الملامح ومنها شخصية محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد الشريف الزهار الجزائري، الذي كان له شأن في نهاية العهد العثماني⁶⁰.

د- أعلام الجزائر ومتيجة :

إذا ما تمّ اعتماد حاضرة الجزائر كمدينة ذات شأن تأتي تتويجا لتاريخ متيجة من حيث مكانتها وأعلامها فإن القيمة العلمية باتت لا تعكس الصورة التي صرّح بها العبدري حينما مرّ عليها متوجها نحو المشرق وهو يصف حالها العلمي المتردي قائلا: "لم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من الفنون منسوب"⁶¹. وهو حكم تنفيه الوقائع إذ تفيدنا جلّ المصادر التي تمّ تناولها -على يسرها- بأن حاضرة الجزائر كانت حاضرة علم منذ العهود الأولى، فتنبع أخبار المهدي بن تمرّت من خلال البيذق وهو المصاحب له في الرحلة

تفيدنا بتوجه المهدي من بجاية نحو مليانة وتلمسان حيث تحدث الكاتب عن ذلك اللقاء الذي تمّ بمتيجة بين الزعيم الموحي المهدي وفقهاء الفحص ومنهم عبد الجبار بن محمد والفقهاء أبي زكريا⁶²، وهما الشخصيتان اللتان تعوزنا ترجمتهما، وإلاّ تبين مدى القيمة التي دفعت بالمهدي على علو قدره وكبر مكانته أن يجالسهما ويبيت عندهما... وكان ذلك في مستهل ق 6هـ.

وإنّ البيذق حينما يشير إلى المهدي الذي كان كلّما سار إلى مدينة أمر بإصلاح مسجد مهدم أو بناء مسجد فإنّ هذا العرف بقي متداولاً فيما بعد حيث يفيدنا صاحب المسند الصحيح في حديثه عن أبي الحسن المريني ودخوله مدينة الجزائر بأنّه شيد المدارس المختلفة الأوضاع، وتحدث عن طبيعة بنائها ومواد ذلك وتفاصيلها وأحباسها ومعلميها وطلبتها وكيف كانت العناية بها⁶³. وربما كانت هذه الحاضرة على عهد بني زيان تفوز بمكانة ليست لدى باقي الحواضر الزيانية إذ يشير نص زهرة البستان بما يؤول مكانتها ومقامها الرفيع لدى هؤلاء، وربما انسحب الأمر كذلك على المرينيين الذين استولوا عليها مدة من الزمن إذ جاء في نصه: "وفي 18 ذي الحجة خرج الأمير أبو تاشفين ابن المولى أبي حمو السلطان المنصور برسم سكنى الجزائر ليتربى بها كما فعل قبله بأبناء الملوك المشاهير فكان دخولها إليها في أولويات شهر محرم عام 765هـ"⁶⁴، وهو ما يعتبر دلالة واضحة على المقام العلمي المميز الذي بلغته حاضرة الجزائر إذ كان أبناء الأسر الحاكمة يلجؤون إليها لوفرتها على الحماية اللازمة والهدوء الوفير مما خولها أن تكون محضناً دافئاً لهؤلاء، والتكوين الهادئ ليصيروا على أهبة من أمر السياسة والتدبير.

ولعل موسوم الغبريني يكون أحسن ردّ على ما تقدم به العبدري آنفاً من النفي لثابت العلم والعلماء، إذ نجد في عنوان الدراية أعلاماً من حاضرة الجزائر ومنهم أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن يوسف الجزائري (ت 670هـ) الذي صار فقيهاً قاضياً فاضلاً، وهو الذي لقي فقهاء الحاضرة ومنهم أبو علي عبد النور

الجزائري، وأبو عبد الله ابن منداس المهتم بالفقه والأدب والفرائض وعلم الوثائق⁶⁵، ولقد أشار الغبريني إلى هذا العالم الفقيه الذي تولى قضاء بجاية، وعلى أنه بالرغم من بون المسافة الزمنية بينه وبين سحنون صاحب المدونة إلا أنه كان ينهج نهجه ويتبع طريقته وهي الطريقة التقليدية في القضاء⁶⁶. كما تلفت هذه الترجمة انتباه الباحث إلى ذلك التواصل العلمي الذي كان بين فحص متيجة وحاضرتة الجزائر مع أبرز حاضرة بالمغرب الإسلامي عصرئذ وهي بجاية.

تقدم لنا كتب الرجال وتراجمهم أعلاما من حاضرة الجزائر وصلت إلى مراتب عليا خارج أوطانها كالكتابة والقضاء والإفتاء ومنهم محمد بن عبد الحليم التجيبي (ت 853هـ) الذي كانت له براعة نادرة في الفقه⁶⁷ لكننا لا نعرف عنه الكثير. وفي معيار الونشريسي نجد عددا من هؤلاء الذين اعتمد عليهم في فتاويه ومنهم الفقيه أبو الحسن علي بن محمد الحلبي الجزائري⁶⁸، كما يحضر الفقيه أحمد بن محمد بن ذاقال - الذي يُعدُّ من طبقة قاسم العقباني (ت 854هـ) - بفتاويه في المازونية مما ينبّه على اشتغاره بالفتيا وحسن أدائه الفقهي وفهمه لواقع مجتمعه⁶⁹، ولا ندري أهو نفس الفقيه الذي ذكره الونشريسي في مدونته حينما تحدث عن الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن ذاقال أم يعتبر هذا الأخير أبا لأحمد المذكور آنفا⁷⁰. وإذ لا نملك مزيدا من التفاصيل حول هؤلاء الأعلام فإنّ الأكيد أن مصنفي الونشريسي والمازوني يحتويان على عدد من أعلام الحاضرة المتيجية أمثال عبد الحق بن علي وهو قاضي الجزائر ومفتيها وفقيها الذي كان معاصرا لعبد الرحمن الثعالبي المعداد من أعلام النصف الثاني ق 9هـ وهو سليل أسرة علمية عريقة⁷¹.

ولم يكن أعلام الجزائر ومتيجة ليكتفوا بالفقه كمادة اهتمام فحسب، بل تجاوزوا ذلك إلى العناية بالعلوم الأخرى كالتوحيد والتصوف، إذ مثلت منظومة كفاية المريد في علم التوحيد نموذجا فريدا مضافا لتفسير الثعالبي ومؤلفاته المتنوعة، وهي منظومة لامية تقع في أزيد من أربعمئة بيت⁷² ألفها

تلميذ عبد الرحمن الثعالبي أحمد بن عبد الله أبو العباس الجزائري (ت 898هـ) وقد تداول الناس القصيدة حفظا وشرحا وتحليلا، وممن كلف نفسه بذلك محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ) بعد أن بعث بها الناظم نفسه ومبدؤها:

الحمد لله وهو الواحد الأزلي سبحانه جلّ على الشبيه وعن المثل

وإلى جانب أعلام حاضرة الجزائر - تاج متيجة - يحضر أعلام آخرون وفدوا من شتى المناطق ذات القيمة العلمية إلى هذه حاضرة العتيقة وهو ما وفر مزيدا من العلوم والمناهج المفيدة، إذ ينقل إلينا ابن فرحون وابن الآبار الخبر عن وفود أعلام أندلسيين منهم أحمد بن عبد الله بن خميس الأزدي (ت 547هـ) الذي أخذ عن الفقيه أبي بكر بن العربي وقد اشتهر ابن خميس بالفقه والأصول والفروض وعمل على نشر معارفه بهذه الحاضرة التي كانت تمثل محط لقاء أهل بسيط متيجة ولا شك⁷³. وأخذ علم آخر عن أبي بكر بن العربي ثم دخل الجزائر وهو عبد الله بن حجاج بن يوسف المكنى أبو محمد الذي تولى قضاء الجزائر ثم هاجر إلى بجاية وقد كان له خمسة أبناء كلهم مارسوا القضاء والذي كانت وفاته سنة 640هـ⁷⁴.

والحقيقة أنّ العلاقة بين حاضرة الجزائر والأندلس كانت دوما فاعلة إذ لم تستقطب الجزائر الفعاليات الفكرية الأندلس، بل وُجد من الفعاليات الفقهية الجزائرية من دخل الأندلس وتمكن من تألق مرتبة رفيعة هناك رغم ما لها من أعلام، إذ يفيدنا الغبريني عن أخبار أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن السطّاح (ت 629هـ) الذي دخل اشبيلية ولقي أعلامها ومنهم أبا الحسن بن زرقون الذي سلمه مصنفه "الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار" فأدخله العدة وكانت آخر أيامه ببجاية حيث تولى قضاء أنكحتها⁷⁵. كما أشارت مصادر أخرى إلى محمد بن قاسم بن منداس (ت 643هـ) وأحمد بن هلال العروضي (ت 640هـ) وعبد الله بن حجاج المعروف بابن السّكاك (ت 641هـ) وهم من أهل الجزائر دخلوا مدنا أندلسية لأخذ العلم عن أعلامها⁷⁶. وهناك

أعلام آخرون تبقى آثارهم مجهولة لدينا، حيث لم تصلنا إلا أسماءهم ولم تفدنا المصادر بتوجهاتهم وأثارهم إذ يحضر اسم مرداد بن محمد الزغيمي الجزائري (ت 841هـ) دون حضور سيرته أو الحديث عنه في المصنفات المغربية على الرغم من تداول إسمه في مصنف مشرقي شهير⁷⁷.

كما دخل إلى حاضر الجزائر أعلام من بجاية فالحديث عن محمد بن حماد الصنهاجي (ت 628هـ) الذي تتلمذ على يد أبي مدين شعيب وأبي علي المسيلي والذي انتقل إلى الجزائر طالبا العلم. وإنّ الكلام عن صهر ناصر الدين المشدالي عمران بن موسى المشدالي الشهير بالفقه والأصول والنحو والمنطق⁷⁸ هو الكلام عن التأثير البجائي في حاضرة الجزائر ومدن متيجة، ونفس الكلام يذكر عن وفود أعلام تلمسان إلى حاضرة الجزائر حيث تشير المصادر إلى عالم تلمسان أبي محمد عبد العزيز بن مخلوف (602 - 686هـ) الذي صار يدعى خزانة مالك وتمّ تحليلته بالفقيه القاضي والعالم المحدث المولود بتلمسان والمتوفى بالجزائر بعد أن درّس خلقا كثيرا⁷⁹. وتشير أيضا إلى محمد بن محمد بن حسن اليحصبي البروني من أعلام القرن 8هـ حيث أخذ عن عمران المشدالي وابني الإمام والآبلي، والذي ذكره ابن فرحون بأنّه انفرد بمعرفة مختصر ابن الحاجب الفرعي وله عليه شرح⁸⁰ وقد أدخله إلى الجزائر، ونظن أنّ ابن فرحون قد أخطأ في ذلك إذ تتلمذ هذا الأخير على يد عمران المشدالي الذي كان قد دخل الجزائر، ولا نظن أيضا أنّ هذا الأخير قد دخل الحاضرة دون تدريس فرعي ابن الحاجب قبل دخول تلميذه اليحصبي!

إذاً كان التواصل بين فحص متيجة ومدينته الجزائر مع كل من الأندلس وبجاية وتلمسان مما أعطى دفعا علميا عظيما لهذه المنطقة وتاريخها، وقد ازداد شأن هذا الفحص وحاضرتة رفعة حينما تمّ تصدير طلبة العلم إلى بلاد المشرق. وإذ نسجل تقصير المصادر المحلية في التنويه بتلك الرحلات التي كان يعتمد عليها طلبة حاضرة الجزائر وسهل متيجة إلى المشرق، فإنّ الحديث عن بعض العينات

قد يغني بالبوح بذلك التواصل العلمي بين المنطقتين إذ أشار بعضهم إلى محمد بن عبد الله ضياء الدين المتيجي (ت 659هـ) الذي بلغ من العلم والفقه والحديث درجة عالية وهو الذي تعود أصوله إلى متيجة رغم أنه ولد بالإسكندرية، وكان قد رحل أبواه إلى المشرق واستقروا هناك، كما دخل عالم آخر إلى مصر واستقر فيما بعد بالمدينة المنورة وهو محمد بن محمد بن ميمون (ت 801هـ) بمكة حيث درس بالجزائر ودخل تلمسان ثم تونس وقد كان شغوفا بالتدريس ومشاركاً في فنون عدة⁸¹. وربما يكون محمد بن عبد الله ضياء الدين هو الذي أشار إليه ياقوت الحموي أثناء توصيفه لسهل متيجة حينما ذكر دخول أبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن عيسى المتيجي إلى الإسكندرية وقد سمع كلا من أبي الفضل عبد الحميد بن الحسين الخطي وعبيدة وابن نقطة وعددا من أهل الإسكندرية⁸².

ويبقى من أجل من ارتسمت فيه مدرسة الجزائر وتعلق به طلبة متيجة العلامة أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي (ت 876هـ) والذي اقتترنت شهرته بموسومه في التفسير "الجواهر الحسان" الذي بدأ تدوينه سنة 832هـ وأتمه سنة 833هـ، وقد وصلت نسخ منه إلى مكة المنورة وبيت المقدس فضلا عن حواضر المغرب الإسلامي، و تكلم هو نفسه عن أهميته قائلا : "لا يستغني عنه المنتهى وفيه كفاية للمبتدي يستغني به عن المطولات كما وصفه بخلوه من الشبهات"⁸³.

لقد مثل الثعالبي مدرسة حاضرة الجزائر مركز التقاء أبناء متيجة وترك لنا آثارا برهنت على مكانته وعلو شأنه، وبرز ذلك من خلال الإجازات التي كان يقبل على طلبها منه طلبة الحواضر الأخرى، إذ أفادنا البلوي عند حديثه عن ابن مرزوق الكفيف ومشايخه عن الإجازة التي قدمها الثعالبي للكفيف بن الحفيد في جميع الفنون وكان ذلك بتاريخ أوائل رمضان من عام 854هـ، وقد كان ابن مرزوق يروم لقاء الثعالبي لأجل الأخذ عنه إلا أن هذا الأخير اعتذر

بقوله "فاعلم يا سيدي ومولاي أنّ حالي في هذا الوقت متعذر، قد وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا وما حال من بلغ السبعين أو قاربها ⁸⁴ .

وإنّ آخر من أمكن ذكرهم كنماذج لبسيط متيجة وحاضرة الجزائر من الأعلام والفقهاء ذاع صيتهم وفاض خبرهم على الجميع حتى وصل أقاصي البلاد المغربية والمشرقية نجد من تحدث عنهم صاحب دوحة الناشر حيث تكلم عن آخر أعلام الفكر والثقافة للعصر الوسيط وهو أحمد بن القاضي الزواوي أبو العباس هذا الشيخ الذي جعله من الفضلاء الأخيار والعلماء الأبرار، إذ كان مجتهدا بنفسه قائما عليها باذلا ماله وجهده في إقامة الشعائر وغزو أعداء الله، وقد كان أيام خير الدين باشا حيث كان السبب في دخول هذا الأخير إلى مدينة الجزائر لحسن ظنه به ومحبته الجهاد في سبيل الله. وقد توفى هذا العالم مقتولا سنة 930هـ على ما ذكر صاحب المصدر ⁸⁵ .

وأخيرا فإنّ التنقيب عن تاريخ متيجة السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري الثقافي هو مما يستوجب النهوض عليه ونفض غبار الإهمال عنه والاهتمام به، لأنّ المخزون التاريخي يحضر كتجارب يمكن اعتمادها في تجاوز عقبات عدة بعد صياغته ضمن المنظومة الفكرية والثقافية لمجموع الساكنة والطبقة الواعية. كما أنّ التعمق في البحث الرصين والوصول إلى المصادر الدفينة سواء المتوافرة لدى الأفراد أو المكنوزة لدى الهيئات يمكن أن يعطينا الصورة الناصعة لماضي المنطقة ومآثرها بما يفيد في بناء الشخصية الواعية. وإنّ التنسيق بين الهيئات هو مما يزيل العديد من العوائق للوصول إلى حقيقة الأشياء فتعامل الفعاليات الفكرية الثقافية مع المؤسسات العلمية المتخصصة وعلى رأسها الجامعة قد يعطي دفعا قويا ومنظما في سبيل البحث والتنقيب في مواضيع متخصصة يمكن إدراجها ضمن ملتقيات وفعاليات قادمة.

- الهوامش :

- 1 أحمد يعقوبي : كتاب البلدان ، طبعة بريل ، 1820 ، ص 142.
- 2 مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ، تح: سعد زغلول عبد الحميد ، دار آفاق عربية ، العراق ، دت ، ص 132.
- 3 ابن خلدون: العبر ، ج 7 ، ص 87.
- 4 عبد المنعم الحميري، الروض العطار في أخبار الافطار ، تح: احسان عباس ، ط2 ، مكتبة لبنان ، 1984 ، ص 163.
- 5 ابن حوقل: صورة الأرض ، ص 86
- 6 القدسي: أحسن التقاسم ، ص 56.
- 7 بن خلدون: العبر ، تح حسين شحادة وسهيل زكال ، دار الفكر ، لبنان ، ط2000 ، ج 6 ، ص 72. البكري أبو عبدالله: المسالك والممالك ، تح جمال طلبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج2 ص247. اعتبر مجاورة النهر شرطاً من شروط بناء المدينة بالإضافة إلى شروط أخرى ، إذ اهتم العديد من النابهين لهذا شأن وجعلوا لبنائها شروطاً وخصائصاً يظهر ذلك من خلال ما قرره ابن أبي الربيع شهاب الدين أحمد بن محمد (ت272هـ) حينما أفصح عن مجموعة من الخصائص الضرورية لبناء المدن منها "سعة المياه المستعذبة ، والميرة المستمدة ، واعتدال المكان ، وجودة الهواء ، والقرب من المراعي والاحتطاب وتحصين المنازل بأعداد سور يحيط بها". كما تبرز الحاضرة في التفكير الديني لفقهاء المسلمين كمكون يمتاز عن البادية في عدد من الخصائص مما دفع ببعض منهم وعلى رأسهم الأحناف إلى عدم اعتبار صلاة الجمعة بالبادية وأنها لا تقام إلا بالحوضر ، كما لجأ بعض الفقهاء المالكية بالمغرب الأوسط مثلاً إلى الإقرار بعدم جواز قضاء أهل الحضر للبادية ، ولا أهل البادية للحضر ، مما يبين اختلاف الطبائع والسلوكات
- 8 مبارك المليي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ودار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ج2 ، ص 105.
- 9 الحسن بن محمد الوزان : وصف أفريقيا ، تح محمد حجي وآخرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1983 ، ج2 ، ص 37.
- 10 شهاب الدين المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة ليدن ، 1906 ، ص 288.
- 11 شارل أندري جوليات: تاريخ شمال إفريقيا ، تح: البشير بن سلامة ، محمد مزالي ، الدار التونسية للنشر ، ط 1983 ، ص 19.
- 12 المقدسي: نفس المصدر ، ص 288.
- 13 مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ، تح عبد الحميد سعد زغلول ، دار آفاق عربية ، العراق ، ص 132. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، مج5 ، ط2 ، 1984 ، ص 163.
- 14 الاستبصار ، ص 132.
- 15 ابن خلدون: العبر ، ج 6 ، ص 262.
- 16 الوزان: وصف ، ج 2 ، ص 251. ويفند تدخل الوزان حول واد شفة ما يروج في تفكير العامة حول مصدر الاسم "شفة" حينما أرجعوه إلى كون المكان مركز استشفاء لجرحى الأمير عبد القادر أثناء المقاومة ، وهو من الشطط بمكان لأنّ الوزان ذكر اسم الوادي الذي تنسب إليه المدينة وقد كان أسبق من الوزان ، لكن نظن أن تسمية شفة قد تعود إلى اسم قبيل من الأعراب الوافدة على المناطق منابع الوادي ذكرها مارمول كريخال في تقسيمه لعرب بني هلال ومواطنهم وهي إحدى القبائل الثلاث الرئيسية (بنو هلال ، بنو سليم ، معقل) من العرب الوافدة ، وقد قسم بني هلال إلى إحدى عشر عمارة منهم أولاد رياح وهم قوم أشداء يسيطرون على جزء من نوميديا و ينقسمون إلى ستة بطون هي

- بلال، وآوو وشيفة، ويعقوب، وحنيشة ، ويحي، وكلهم نبلاء وشجعان مجهزون أحسن تجهيز. أنظر مارمول كريخال: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، ط1984، ج1، ص104
- 17 أحمد توفيق المدني: تاريخ الجزائر، ج2، ص171
- 18 البكري: المصدر السابق، ص65
- 19 الحموي: معجم البلدان، دار صادر بيروت، مج5، ص53
- 20 مارمول كريخال: إفريقيا، ج1، ص39
- 21 نفس المصدر، ج1، ص39
- 22 الحميري، روض، ص163
- 23 راجع ابن خلدون: العبر، ج2، ص262
- 24 الوزان: وصف، ج2، ص96
- 25 البكري: المصدر السابق، ص66. ياقوت: المصدر السابق، مج5، ص53
- 26 مارمول كريخال: المصدر السابق، ج1، ص27
- 27 الوزان: المصدر السابق، ج1، ص37
- 28 هي مدينة قديمة كانت ذات شأن إلى غاية القرن 9هـ، وينسب إليها أبناء الإمام العالمان الفقيهان، ولا يعلم مكانها الآن إلا أنها تقع بين تنس وشرشال. وحسب الاجتهاد نظن أنها تقع إلى الجنوب من قرية بني حوا اليوم.
- 29 ابن حوقل: صورة الأرض، مطبعة بريل، مدينة ليدن، 1938، ص76
- 30 الوزان: نفس المصدر، ج2، ص34
- 31 نفسه: ج2، ص41
- 32 البكري: المصدر السابق، ص65. ياقوت: المصدر السابق، ج5، ص53
- 33 ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص117
- 34 نفسه، ص134
- 35 الملي: تاريخ الجزائر، ج2، ص215
- 36 ابن خلدون: نفس المصدر، ج7، ص86
- 37 يحي بن خلدون: بغية الرواد ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، ط2011، ج1، ص236
- 38 يذكر القيرواني بأن هذا الحدث كان سنة 400م/999م وهو تاريخ فيه من الشطط بمكان. أنظر القيرواني نقلا عن مارمول كريخال: المصدر السابق، ج1، ص99، مع العلم أن عدد هؤلاء الأعراب قد اختلف فيه بين المؤرخين ولا نجد توثيقا دقيقا في هذا الشأن.
- 39 ابن خلدون: العبر، ج6، ص77، ص84
- 40 ابن خلدون: العبر، ج6، ص84
- 41 يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص237
- 42 نفسه، ص264
- 43 راجع ابن خلدون: العبر، ج7، ص193 مثالا.
- 44 نفسه: ج7، ص72
- 45 نفسه، ج7، ص134
- 46 أنظر العبر، ج6، ص85
- 47 الوزان: المصدر السابق، ج2، ص96. أشارت المصادر إلى منزلة الأولياء عند أهل الحضرة والمدر، واستتجت الدراسات بأنه كان لكل حاضرة في الزمن الوسيط والحديث ولي من أولياء الله الصالحين ارتبط بها وارتبطت به، فإذا كانت الجزائر ترتبط بسيدي عبدالرحمن الثعالبي ومدينة

وهران بسيدي الهواري ومدينة مليانة بسيدي أحمد بن يوسف فإن البلدة قد ارتبطت بسيدي الكبير الأندلسي الشهير . وهو موضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسات لفهم طبيعة التفكير الفردي والجماعي لمجتمع العصر الوسيط بالمغرب الأوسط.

48 نفسه ص 96.

49 الميلي: تاريخ الجزائر، ج2، ص 215.

وقد ذكر الميلي من بطون صنهاجة بهذه المناطق بنو مزغنة، وبنو خليل وممتان وبنو جعد وبطوية وبنو ايفان، ولكنهم من بطن تلكاتة قوم زيري بن مناد.

50 اليعقوبي: البلدان، ص 142.

51 التنسي: تاريخ دولة الادارسة من كتاب نظم الدرّ والعقيان، تح عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 65، 66. مع الملاحظة أن كلا من اليعقوبي(ت292هـ) وابن حزم الأندلسي (ت456هـ) والبكري(ت478هـ) قد نسبوا بلاد حمزة إلى حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنهم اليعقوبي : المصدر السابق، ص 191: ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ص55:البكري: المصدر السابق، ص246: الحموي: المصدر السابق، مج 2، ص302.

52 اليعقوبي: نفس المصدر، ص 143.

53 الوزان: وصف، ج2، ص 40.

54 اليعقوبي: المصدر السابق، ص 191.

55 الميلي: المرجع السابق، ج2، ص 194.

56 يحي ابن خلدون: بغية، ج1، ص 207.

57 يقصد بترجمان العبر الاسم الأول لمصنف عبدالرحمن بن خلدون المسمى ديوان العبر، ويظهر أنها التسمية والعنوان الأول لهذا المصنف الضخم الحجم العظيم الفائدة، وهو ما يستوجب مزيدا من التأكيد والبحث.

58 التنسي: نظم الدرّ، ص 67.

59 الميلي: نفس المرجع، ج2، ص 157.

60 راجع أبو القاسم الحفناوي: تعريف الحلف، رجال السلف، مطبعة ببيروت فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ص 469.

61 أبو عبدالله محمد العبدري: الرحلة المغربية،، تح محمد الفاسي، الرباط، 1968، ص26.

62 أبو بكر بن علي البيذق: أخبار المهدي ابن تمرت، تح عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط1994، صص43، 44.

63 محمد بن مرزوق الخطيب: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بغيرا، تقديم محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 406، 407.

64 مجهول: زهرة البستان في دولة بني زيان، تح عبد الحميد حاجيات، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2011، ص 261.

65 أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 122.

66 نفسه: ص 122.

67 أحمد بابا التبتكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004، ج2، ص 208.

- 68 أحمد أبو العباس الوثنريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقيا والأندلس والمغرب، تح محمد حجي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، ط1981، ج2، ص285.
- 69 التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تح عبد الله الكندي، دار ابن جزم، بيروت، ط1، 2002، ص62.
- 70 الوثنريسي: نفسه، ج2، ص286.
- 71 التنبكتي: نيل، ج1، ص312.
- 72 راجع البلوي: الثبوت، ص439.
- 73 ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1996، ص114.
- 74 أبو عبد الله بن الأبار القضاعي: التكملة كتاب الصلة، تح عبدالسلام الهروس، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1995، ج1، ص54.
- 74 صالح محمد فياض أبو دياك: العلاقات الثقافية، بين المغرب والأندلس، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، مج3، س13، 1987، ص123.
- 75 الغبريني: المصدر السابق، ص225.
- 76 ابن الأبار: التكملة، ج1، ص113، ج2، ص168.
- 77 شمس الدين السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، مج10، ص154.
- 78 بدر الدين محمد القرافي: توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تح على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004، ص143، يحي بوعزيز: أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب العربي، مركز النشر الجامعي، تونس، ط2000، ج1، ص33.
- 79 الغبريني: عنوان، ص91.
- 80 ابن فرحون: الديباج، ص420.
- 81 راجع عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلاد العربية والإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2010، صص170، 171.
- 82 ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، مج5، ص53.
- 83 الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، تح عمار طالبي: المقدمة.
- 84 أبو جعفر أحمد البلوي: ثبت البلوي، تح عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1983، صص308، 309.
- 85 محمد بن عسكر الشفشاوني: دوحة الناشر، تح: محمد حجي وآخرون، ط2003، ص114.